

جيمس كليير || كيف تنشأ الأفكار المبتكرة؟



الجمعة 27 مارس 2026 08:00 م

بروي جيمس كليير قصة تجربة فريدة خاضها توماس ثوايتس، حين قرر تصنيع محمصة خبز من الصفرٍ بدأ بشراء محمصة رخيصة وتفكيكها، معتقداً أنها جهاز بسيط، لكنه اكتشف أنها تتكوّن من أكثر من 400 جزء ومواد متعددة مثل البلاستيك والنيكل والفولاذٍ قاده هذا الاكتشاف إلى رحلة معقدة لمحاولة إعادة تصنيع كل مكوّن بنفسه، بداية من استخراج الحديد لصناعة الفولاذ، وصولاً إلى البحث عن النفط لإنتاج البلاستيك

يوضح جيمس كليير أن هذه التجربة كشفت حقيقة عميقة: بناء شيء من الصفر يكاد يكون مستحيلًا دون الاعتماد على أنظمة وعمليات سابقةٍ واجه ثوايتس صعوبات متتالية، فاضطر إلى إذابة عملات قديمة للحصول على النيكل، وجمع بقايا بلاستيك لصنع الغلاف، لينتهي به الأمر إلى منتج بدائي يشبه "كعكة مذابة" أكثر من كونه جهازًا عمليًا

لا تبدأ من الصفر

يكسر الكاتب فكرة شائعة مفادها أن الابتكار يتطلب بداية جديدة بالكاملٍ يعتقد كثيرون أن التغيير الحقيقي يحتاج إلى "لوحة بيضاء"، سواء في العمل أو الحياة، لكن الواقع مختلفٍ نادرًا ما يظهر التقدم نتيجة هدم كل ما سبق، بل ينمو عبر تطوير ما هو موجود بالفعل

يستشهد الكاتب بالطبيعة، حيث لم تظهر الطيور فجأةً بقدرتها على الطيران، بل تطورت تدريجيًا من زواحف، وتحولت الحراشف إلى ريش صغير لأغراض العزل، ثم تطور هذا الريش ليصبح قادرًا على الطيرانٍ يعكس هذا المثال كيف تتراكم التغييرات الصغيرة لتخلق تحولات كبيرة

الابتكار هو إعادة تركيب

يمتد هذا النمط إلى الابتكار البشريٍ غالبًا ما يُنسب اختراع الطيران إلى الأخوين رايت، لكنهما اعتمدا على أعمال سابقة لرواد آخرينٍ لم يبدأ من الصفر، بل جمعا الأفكار الموجودة وطوّراها

يؤكد الكاتب أن الإبداع لا يعني خلق شيء من لا شيء، بل ربط أفكار قديمة بطرق جديدةٍ ينجح المبتكرون لأنهم يجيدون إعادة التركيب، لا لأنهم يعملون في فراغٍ ومن هنا، يظهر مبدأ بسيط لكنه قوي: التحسن التدريجي، حتى بنسبة 1%، قد يكون أكثر فعالية من إعادة بناء النظام بالكامل

العالم أعقد مما نتصور

تكشف تجربة "مشروع الخبز" مدى تعقيد العالم الحديثٍ عندما يشتري الإنسان منتجًا بسيطًا، لا يفكر في سلاسل الإمداد والعمليات التي سبقته، من استخراج المواد الخام إلى التصنيع والنقلٍ يرکز العقل عادة على النتيجة النهائية، ويتجاهل الشبكة الضخمة من العمليات التي تجعل هذه النتيجة ممكنة

يؤدي هذا التجاهل إلى سوء تقدير التحديات، خاصة عند محاولة حل مشكلات معقدةٍ لا يرى الإنسان بسهولة القوى التي تساعد أو تعرقله، ما يجعل اتخاذ القرار أكثر صعوبة

طوّرن لا تُخترع من جديد

يقدم الكاتب خلاصة واضحة: عند مواجهة مشكلة معقدة، يُفضّل البناء على ما يعمل بالفعل بدل البدء من الصفر. كل فكرة ناجحة اليوم اجتازت اختبارات عديدة، ما يجعلها نقطة انطلاق قوية. تحمل الأفكار القديمة قيمة خفية، لأنها أثبتت قدرتها على البقاء في بيئة معقدة.

يدعو الكاتب إلى تبني عقلية "التطوير المستمر" بدل "الاختراع من العدم". لا يحتاج التقدم إلى قفزات هائلة دائماً، بل إلى تحسينات صغيرة متراكمة. هذه التحسينات، مع الوقت، تصنع فرقاً كبيراً.

في النهاية، تعيد هذه الفكرة تشكيل نظرتنا للنجاح: لا يولد الابتكار من فراغ، بل ينمو بهدوء فوق ما سبق، كطبقات متراكمة من التجارب. ومن يفهم هذه القاعدة، يمتلك ميزة حقيقية في عالم مليء بالتعقيد، حيث لا يفوز من يبدأ من الصفر، بل من يعرف كيف يبني على ما هو موجود بالفعل.

<https://jamesclear.com/dont-start-from-scratch>